دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	النمو الحضري بمدينة مراكش في عهد المرينيين والسعديين
المصدر:	مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الناشر:	جامعة القاضي عياض - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
المؤلف الرئيسي:	أحمد، هوزالي
المجلد/العدد:	ع 8
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1992
الصفحات:	10 - 32
رقم MD:	517497
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	التنمية العمرانية، مراكش، المغرب، تاريخ مراكش، الحضارة الإسلامية، الدولية السعدية، الدولة المرينية، التصميم المعماري، العمارة الإسلامية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/517497

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

النمو الحضري بمدينة مراكش
في عهد المرينيين والسعديين

هوزلي أحمد - جغرافيا -
كلية الآداب
مراكش

لقد تأسست مدينة مراكش بقرار سياسي من طرف المرابطين سنة 462 هـ 1070 م لتكون قاعدة لإمبراطورية ناشئة بمكان يعتبر عقدة مواصلات مهمة بشرق سهل الحوز، مما جعلها حلقة وصل بين أقاليم متباينة الإنتاج ، له أهمية استراتيجية لكنه فقير فلاحيا، وحققت نهضة عمرانية واقتصادية كبيرة في ظرف وجيز، إلا أنه منذ نشأتها ارتبط مصيرها بوظيفتها السياسية الأولى أي تواجد أسرة مالكة تدعم نفوذها الإقتصادي، وتسهر على متانة علاقاتها بمحيطها الإقليمي والوطني وكلما حرمت من هذه الوظيفة تعرضت لركود وتقهقر اقتصادي واجتماعي ينعكس بسرعة على بنيتها العمرانية. وهذا ما سنراه في عرضنا خلال العصرين المريني والسعدي، مطبقا على مستوى تصميمها الحضري وذلك من خلال قراءة بعض البحوث والمراجع التاريخية وتحليل جغرافي حضري لمعطياتها. ونظرا لقلة البحوث التاريخية حول الجوانب الإقتصادية والعمرانية والسكانية بمدينة مراكش فإنني اعتمدت في بعض الاستنتاجات على قواعد جغرافية وحضرية عامة وعلى آراء بعض الزملاء الأساتذة وعلى تحريات محلية. وسأتطرق إليه من خلال أربعة محاور هي :

1 - الوضعية السياسية والإقتصادية بمراكش خلال الحكم المريني.

2 - تقلص نفوذ المدينة وتقهقرها العمراني .

3 - النهوض السياسي والإقتصادي خلال الحكم السعدي.

4 - قراءة للتصميم الحضري لمدينة مراكش في عهد السعدي.

I - مراكش في العهد المريني

انصب اهتمام المرينيين على شمال المغرب وشرقه ولم يهمهم من الجنوب سوى ابادة فلول الموحدين والقضاء على آثارهم وطاردهم القائد أبو علي المليانى إلى تنمل حيث نشر الخراب ونبش القبور. ولما كثرت الخلافات بين زعماء المرينيين وضعفت شوكتهم أتيحت الفرصة لأسرة حاكمة محلية لتتولى حكم مراكش وكل الجنوب المغربي ابتداء من 1353 م هي الأسرة الهنتاتية، لقد بقي زعماؤها مرتبطين بمسقط رأسهم الجبلي، وبهذا صارت المدينة خاضعة لقوى ريفية لكن سرعان ما دب الخلاف بينهم كذلك فضعفوا ولم يستطيعوا فرض نفوذهم على الأعراب الذين عاشوا فسادا في أحواز مراكش ودحروا السكان إلى الجبال واستعاضوا عن الزراعة بنشر الرعي وبذلك قطعوا العلاقات التكاملية القائمة بين الجبل البربري والسهل الذي صار بدويا، وحرمت مراكش من الاتصال بحوضها المغذي لها الذي صار تابعا جزئيا إلى فاس وتوسع نفوذ البرتغاليين انطلاقا من آسفي وأزمور واغاروا على أحواز مراكش وأسروا السكان والمواشي عند أسوار المدينة التي انعدم الأمن داخلها وتحولت أحياؤها إلى دروب لها أبواب تغلق ليلا.

لقد كان عهد المرينيين بمراكش مرحلة انحطاط حضاري وتقلص عمراني وديمغرافي كبير.

II - التدهور العمراني والديمغرافي لمدينة مراكش

بقيت المدينة محافظة على تصميمها المرابطي لبقاء أسوارها وأبوابها ومحاورها الرئيسية على حالها، لكنها فقدت الكثير مما حققته من نمو عمراني وإشعاع حضاري في عهد الموحدين حيث وصفها الإدريسي بقوله " إنها مدينة كبيرة ذات أزقة عريضة وساحات واسعة وبنايات عالية أسواقها عامرة ومساجدها كثيرة " فقد خلبت لب زوارها بجمال قصورها وبساتينها وحيها الملكي القصبة.

لقد كان دخول المرينيين إليها سنة 1269 م بعد حصار وحروب طاحنة ضد الموحدين بداية نكستها العمرانية. ورغم بقائها أهم مدينة إدارية وتجارية بجنوب المغرب وقاعدة عسكرية مهمة فإن نقل العاصمة إلى فاس أصابها بانكماش كبير إذ هجر المدينة جل العائلات الارستقراطية السياسية وكل من كانت له علاقة بالموحدين مخافة على نفسه، كما تركها الكثير من الكتاب والموظفين والتجار واليهود إلى فاس لتقديم خدماتهم إلى الطبقة المحظوظة الجديدة، كما أفنت الحروب الكثير من سكانها وتسرب الخراب إلى كثير من الأحياء وتهدمت القصور وتحولت المدينة إلى مجموعة أحياء ذات طابع ريفي تفصلها مساحات فارغة.

وهكذا ظلت راكدة تجتر ماضيها طيلة ثلاث قرون. ولم تعرف خلالها أية حركة عمرانية مهمة رغم بناء بعض المساجد الصغيرة أهمها مسجد ابن صالح 1321 م ومسجدين صغيرين بحارة الصورة وروض الجنة (روض العروس) الذي وسع في عهد السعديين وصار يعرف بمسجد سيدي بن سليمان وصومعة جامع القطة بحي القصور، ومدرسة بشمال مسجد القصبة اندثرت معالمها، ورغم ظهور بعض الشخصيات مثل ابن البناء وبعض المتصوفة فإن المدينة عرفت ركودا فكريا كذلك، لكن المدينة بدأت تستعيد بعض حيويتها في نهاية القرن 15 م عندما بدأ يفد إليها المهاجرون الأندلسيون من مسلمين ويهود انعكس ذلك على الحركة العمرانية بظهور نواة حي رياض الزيتون الذي استقر به المسلمون بينما استقر اليهود بالملاح القديم الموجود بحي المواسين بين المركز التجاري بوسط المدينة وقصر الحجر والكتبية حيث وجدت الطبقة الحاكمة أيام المرابطين، كما كان هناك جماعة أخرى من اليهود تعيش بحي أسول قرب الأحياء الحرفية بشرق المدينة. وبصفة عامة كانت حصيلة هذه الفترة بمراكش سلبية لأن فقدان الوظيفة السياسية حرم المدينة من اسقاطات اقتصادية مهمة إذ فقد الحرفيون والتجار أفضل زبنائهم، لكن الحركة الاقتصادية لم تمت فقد استطاع الحرفيون التكيف مع الوضع الجديد بالاهتمام أكثر فأكثر بالمنتوجات الموجهة للريفيين والفئات الشعبية بالمدينة، لكن الشروع في بناء مدينة فاس الجديد أدى إلى نزوح الكثير من الحرفيين والعمال المهرة دون رجعة.

لقد أدت كل هذه العوامل إلى تقهقر الحياة الحضرية بمراكش وطغيان المنظر الريفي، خاصة بعد تعرضها لسنوات مجاعة وأوبئة في بداية القرن 16 قضت على الكثير من السكان الحضريين الذين حل محلهم مهاجرون ريفيون.

ويقول ابن بطوطة الذي زارها سنة 1350 م أنه لاحظ وهو يشاهد المدينة من أعلى صومعة الكتبية أن معظمها خرائب.

أما ابن الخطيب الذي مر بها سنة 1359 م فإنه قال عن مآثرها العمرانية " سقط بعضها كالموتى وأصيب الآخر إصابات بليغة كالجرحى " ويستطرد قائلا : إن خراب المدينة يثير الفزع.

ويقول الحسن الوزان الذي زار المدينة في بداية القرن 16 في عهد الوطاسيين " أن ثلثي مساحة المدينة غير مسكون ويمارس السكان الزراعة داخلها ذلك أن البدو خارج أسوارها ينهبون كل شيء ونستطيع أن نقول بصدق أن هذه المدينة قد شاخت قبل الأوان. ويستطرد قائلا في مكان آخر " لقد أصاب الخراب القصبة كذلك فقصر الخليفة لازال مسكونا وكذلك بعض الثكنات العسكرية، لكن بعض المباني صارت ملجأ للحمائم والغربان. وقال عن مسجد الكتبية انه من أجمل المساجد لكنه الآن صار مهملا لأن سكان مراكش لايؤدون به إلا صلاة الجمعة، والمدينة ضئيلة السكان خصوصا بجوار الجامع إذ لايصل إليه الإنسان إلا بعناء بين انقاض الهدم التي تعمر الطريق، ولم يعد يوجد حوله ولا دكان واحد لبيع الكتب. ويذكر مارمول الذي عاش بمراكش، بداية عهد السعديين أنه لايرى الآن بداخل المدينة غير الفقر والفراغ وخراب المساكن الواقع بعضها على البعض الآخر مما كون تلالا يستفيد قطاع الطرق كمخابىء للسطو على المارة، وبعض الدور التي أعيد بناؤها بعيدة الجوار، إنها دور منخفضة وسخة كئيبة المنظر يصعب الاعتقاد بأن هذه المدينة كانت عاصمة امبراطورية من جراء ما أصابها من بؤس وإهمال. والاعتقاد أنها تضم الآن أكثر من ثلاثين ألف ساكن.

ومما يفسر هذا الوضع المزري أن معظم منازل مراكش مبني بالتراب المدكوك وهو ضعيف التماسك ولايحمى بطلاء جير إلا نادرا مما يودي إلى إصابته بأضرار

كبيرة عند هطول الأمطار وهو يتطلب صيانة وترميما مستمرا لحمايته من الانهيار وعندما تهجر هذه الدور أو تحرم من الترميم تتعرض للخراب بسرعة أما الدور المبنية بالآجر فهي قليلة. والمبنية بالحجارة نادرة لصعوبة قطع الحجارة ونحتها ونقلها في ذلك العهد.

III مراكش في عهد السعديين

عندما حل السعديون بمراكش سنة 1524 وجدوها كشبح عاصمة ومدينة تحتضر كما قال لوتورنو، ورغم اتخاذهم لها عاصمة لملكتهم فإن خلافات الأسرة الحاكمة وتحاربهم من أجل الملك أصاب المدينة بخراب كبير. ولم تسترجع مراكش هدوءها إلا في أيام الملك المولى عبد الله الغالب الذي لم يدم حكمه طويلا : 1557 - 1574 م وتمتعت بفترة رخاء وأمن طويلة وفي عهد الملك أحمد المنصور 1578 - 1603 م الذي حقق بطولة وطنية وشهرة عالمية بعد وقعة وادي المخازن وجمع أموالا كثيرة من الغنائم وأموال افتداء الأسرى وغزو السودان والتبادل التجاري والضرائب الثقيلة المفروضة على السكان، مما أعطى سيولة نقدية ساعدت على إنعاش التجارة ومختلف الصنائع والخدمات. لكن لم يكد أحمد المنصور يموت سنة 1603 م 986 هـ حتى دخل أبناؤه في حروب مهلكة أرجعت البلاد إلى أسوأ مما كانت عليه وتمزقت وحدتها السياسية من جديد، وتدهورت أحوال المدينة مرة أخرى من جراء الفتن والمجاعات والأوبئة كما جر عليها دورها كعاصمة سياسية سلسلة من حروب الحصار والنهب والاستباحة.

1 - النهضة العمرانية بمراكش أيام السعديين

أ - عبد الله الغالب : بعد وفاة محمد الشيخ الذي أعاد الحياة إلى حي القصبة تولى بعده ابنه عبد الله الغالب الذي قام بإنجاز أعمال عمرانية مهمة لما وجده من أموال بين يديه بسبب الانتعاش الاقتصادي الذي عرفه المغرب بعد توالي سنوات خصبة واستفادته من خدمات المهاجرين الاندلسيين وبعض الخدام المسيحيين، فابتدأت مراكش تسترجع إشراقها كعاصمة وطنية. فقد أعاد بناء المنشآت العسكرية بالقصبة، وإليه يرجع الفضل في بناء المقبرة السعدية وقبة ضريح سيدي يوسف بن علي. وتم

في عهده ترميم شبكة توزيع المياه والمنشآت العمومية والأسوار والبساتين. كما أمر ببناء ملاح جديد بجوار القصبة عند باب غمات، تجمع فيه كل اليهود الذين كانوا منتشرين بحيين أو أكثر بوسط المدينة لارتفاع عددهم بسبب توافد عدد من اليهود من فاس وغيرها. وكان بمثابة مدينة جديدة مساحتها 18 هـ محاطة بسور ولها مقبرتها الخاصة، تم تخطيطها من طرف مهندس يهودي أوربي وسرعان ما وصل سكانها إلى حوالي 3000 - 4000 نسمة، ضم منشآت صناعية مهمة وفنادق تجارية. وكان الملاح مقرا لعدد من الاوربيين التجار المقيمين والزائرين والنصارى العاملين في خدمة القصر.

لقد بدأت الحياة الحضرية تنتعش من جديد وانفتحت الأحياء التي كانت منكمشة على نفسها، وانتعشت أحياء جامع ابن يوسف من جديد بعد أن جدد المسجد وأضيفت إليه مدرسة، واستقبل حي الكتبية والأحياء الشعبية بشرق المدينة عددا كبيرا من مهاجري الأرياف والمدن واسترجعت الأسواق والحرف حيويتها، ذلك أن استقرار أجهزة الدولة وفر من جديد زبناء لهم أمكانيات مادية كبيرة وحاجيات راقية، كما اغتنت المدينة بخبرات ومهارة المهاجرين الأندلسيين الموريسكيين الذين استقروا خاصة برياض الزيتون والقنارية. وظهرت أحياء جديدة مكان أحياء مخربة وفوق المساحات الفارغة، ملأت الفراغ بين أحياء وسط المدينة وأحياء الأبواب . ومن الأحياء الجديدة التي ظهرت فوق انقاض أحياء سابقة القصور والمواسين. ومن الأحياء الشعبية الجديدة سيدي بوعمرو ولالا مسعودة، ونقل ملجأ المجذومين من جوار ضريح سيدي يوسف بن علي الذي صار قريبا من القصور الملكية الجديدة إلى خارج باب دكالة حيث ظهر لهم حي آخر، هو الحارة، وتكاثر بناء المنازل الكبيرة بالأحياء الأرستقراطية.

ومن أهم مخلفات الملك عبد الله الغالب، جامع المواسين الذي بني مكان مقبرة الحي اليهودي السابق ألحقت به مكتبة وحمام ومراحيض وسقاية لازالت مشهورة إلى اليوم ومارستان بالطالعة قرب مسجد ابن يوسف وقنطرة على واد اسيل، ولهذا يعتبر الملك عبد الله الغالب بحق المؤسس الثالث لمدينة مراكش، إلا أن المدينة لم تنج في عهده من نكبات أهمها انتشار الطاعون في بداية حكمه سنتي 1558 - 1559 الذي

قضى على قسم من السكان وانتشار فتن بين أفراد الأسرة الحاكمة بعد وفاته.

ب - **أحمد المنصور الذهبي** : عرفت المدينة استقرارا سياسيا وانتعاشا اقتصاديا وعمرانيا كبيرا في عهده فتوسعت الأحياء الارستقراطية والشعبية لكثرة المهاجرين المتوافدين على المدينة كما أن بناء قصر البديع الذي دام 16 سنة أدى إلى انتعاش الكثير من الحرف والصناعات وجلب العمال المهرة من كل مدن المغرب بل أنعش حتى التجارة الخارجية إذ أن الكثير من مواد البناء مثل الرخام والأدوات المعدنية والزجاج استوردت من الخارج كما أن حاشيته الكبيرة بنت منازل جميلة بأحياء القصبة ورياض الزيتون وجنان بن شكرة....ومع اشتهاره بكثرة أمواله فإنه لم يخلف آثارا عمرانية أخرى مهمة إذ أن بناء قصر البديع استنفد كل أمواله وجهوده. وبنت أمه لالاة مسعودة مسجد باب دكالة بملحقاته المهمة : حمام، مرحاض، سقاية، مدرسة. كتاب.

ج - **مراكش كعاصمة** : استرجعت المدينة دورها كعاصمة وطنية بعد أن فقدته منذ ثلاثة قرون فعرفت انتعاشا اقتصاديا جديدا كان مصدره هذه المرة غنائم وقعة وادي المخازن وذهب السودان وضرائب ثقيلة مفروضة على السكان، وليس غنائم الأندلس كما كان في السابق في عهدي المرابطين والموحدين، وعرفت المدينة في النصف الأخير من القرن 16 نهضة عمرانية واقتصادية واجتماعية فضمت بين جدرانها نفائس العصر واجتذبت أفضل الصناع والمفكرين، ولكن إن حظيت المدينة بمنشآت ومآثر ذات قيمة جمالية ودينية فإن ذلك لم يخدم في شيء التصميم الحضري في مجمله ولم يغير شيئا كثيرا في التوجيه المرابطي أو الموحدي فجاءت فترة السعديين كامتداد اصطناعي للمرحلة المرابطية، فبقي مسجد ابن يوسف هو المسجد الجامع الأكبر وليس مسجد الكتبية الذي كان لايذكر. واستعادت الأسواق والأحياء الشعبية للحرف تألقها، وبقيت لجل الأبواب نفس الأسماء القديمة، كما بقي التصميم العام للمدينة كما كان في العهد المرابطي وبقيت القصبة موحدية ولم يضف إليها قصر البديع شيئا جديدا أكثر من البذخ والأبهة. ويلاحظ أن كل ما جد في نظم إدارة المدينة وتنظيمها كان تقليدا إما لتركيا أو إسبانيا كما يقول السيد كولان وظلت

العناصر الفنية الدخيلة مفتقرة إلى الاندماج والوحدة. فلم يكن هناك تجديد بقدر ما كان تقليد عن الأجانب أو رجوع إلى الماضي. ويقول السيد كاستون دوفيردان كاستنتاج عام لنهضة مراكش في العهد السعدي. " لقد وردت أهم عناصر التجديد من غرناطة على يد المورسكيين واليهود المطرودين من إسبانيا والمسيحيين من تجار وأسرى وجنود وخبراء، فكل ما بدا جميلا وأصيلا بمراكش في عهد السعديين يعود أساسا إلى هؤلاء المهاجرين الذين ينبؤون بالدور المتعاظم للغرب الأوربي الذي بدأت حضارته الناهضة تكتسب الهيمنة العالمية منذ مطلع القرن 16.

2 - مراكش بعد السعديين

لم يكد أحمد المنصور يموت سنة 1603 م حتى تعرضت المدينة لنكبات متتالية كان أولها انتشار الطاعون الذي قضى على حياته وأودى بحياة الكثير من السكان والنخبة الحضرية كما اشتبك أبناؤه في حروب مهلكة للاستئثار بالحكم أصابت السكان والمدينة بالفناء خاصة حي القصبة الذي حوصر واستبيح مرارا فتقلص نفوذ المدينة وتحولت إلى عاصمة إقليمية إذ انفصلت عنها فاس، واستمر مسلسل التدهور والتخريب إلى الفترة الأولى من حكم العلويين حيث تعرضت المدينة مرارا إلى الحصار والنهب والاستباحة فتخربت القصور والدور الكبيرة بمختلف الأحياء خاصة حي القصبة الذي لم ينج فيها من التخريب سوى المقبرة السعدية. ولما حل بمراكش محمد الثالث العلوي كخليفة لأبيه مولاي اسماعيل لم يجد في القصبة بيتا واقفا صالحا يسكنه فنصب فيها الخيام وشرع في ترميمها وإصلاح قصورها ومنشآتها. ولعل أهم ما يرمز إلى هذا المسلسل هو تخريب قصر البديع الذي ينسب إلى المولى إسماعيل، إلا أن الواقع يثبت شيئا آخر كما أشار إلى ذلك السيد بن الشرقي حصري أحمد بقوله : [1] إن القصور التي شيدت بمراكش وغيرها كانت غير متناسقة مع البيئة وأضخم بكثير من مستوى ما تملكه الخاصة بل العامة من مساكن تعاقبت الأسر الحاكمة على التوالي في البداية.

---

[1] في كتابه : ارتسامات ومعطيات تاريخية حول مدينة مراكش : الجزء الثاني

تطغى عليها سمة البداوة فلا تقيم وزنا لما بنى من آثار فاخرة إن لم تكن ناقمة على بانيها عاملة على تخريبها فتبقى تلك المآثر مهملة يتسرب إليها الخراب لعدم الصيانة والترميم، فأولئك البناة الذين تعبوا في تشييد ما شيدوا لم يتركوا بعدهم خلفا في مستواهم ينعم بالإستقرار ويستطيع صيانة هذا التراث والشعب بدوره انسجاما مع طبائع البداوة والقناعة يرى في ذلك الترميم تحديا لشعوره ومضيعة للأموال والجهود.

فقصر البديع الذي فقد وظيفته الملكية بعد السعديين، وأصابه الخراب من انعدام الصيانة وفقدان الوعي الحضاري ونفاذ الموارد المالية ولهشاشة مواد البناء في الجدران والسقوف والمبالغة في إعطاء الأهمية للزخرفة البارزة، فالجدران مبنية بالتراب المدكوك والآجر المتلاصق بالطين والجير والسقوف مسقوفة بالخشب الذي يتآكل بالتراب وتسرب المياه فالهدم يبدأ عادة من السقوف والزليج والرخام ينفصل عن الجدران الترابية بفعل الامتداد والتقلص، ثم تأتي يد الإنسان في غياب الوازع وبدافع الحاجة لتأخذ من الأنقاض ما تستطيع نقله وامتلاكه. فالمولى إسماعيل رأى أنه أولى من غيره للاستحواذ على أعمدة رخامية مستوردة من إيطاليا، ونجد اليوم مخلفات قصر البديع في كثير من المنشآت ليس فقط بمكناس بل في الكثير من مدن المغرب تدخل في تزيين وتمتين بناء الأضرحة والمساجد والدور وأحيانا السقايات والحمامات. أما الآثار الدينية ومرافقها والمنشآت ذات المصلحة العامة فتبقى قائمة لايصيبها التخريب مثل ما يصيب القصور لتعاون عامة الناس في بدل ما يضمن لها الصيانة والترميم كلما دعت الحاجة إلى التفقد والتجديد.

4 - التصميم الحضري لمدينة مراكش في عهد السعديين

أ - السكان والتجهيزات الحضرية

1 - عدد سكان المدينة

أكد الدارسون أن لمدينة مراكش القدرة على استيعاب 100.000 نسمة وقدر

الطوريس عدد سكانها في عهد الموحدين بحوالي 150 ألف نسمة. مع العلم أن البساتين كانت تغطي جزءا كبيرا من مساحتها بالإضافة إلى الساحات والمقابر، كما أن المنازل تحتل مساحة لابأس بها لأنها تحتضن عادة وسطها أحواضا، وجلها يتكون من طابق واحد فكثافة السكان تكون ضعيفة، ولهذا فإن هذا الرقم يبدو مبالغا فيه، وقدر مارمول السكان في عهد السعديين بحوالي 25.000 نسمة ويعلق دوفيردان على ذلك بأنه يمكن أن يكون العدد أكبر من ذلك قليلا بسبب استقرار الأمن طيلة عقود والانتعاش التجاري والصناعي وتوافد المهاجرين الريفيين وجلب العبيد وهذا ما ساعد على تعويض النقص الحاصل في السكان بسبب المجاعات والأوبئة التي عرفتها المدينة في مطلع القرن 16. لقد بدت المدينة لكثير من الزائرين والدارسين أنها اتخذت سمة المدن الكبرى الاسلامية على أنها لم تصل إلى مستوى ما كانت عليه في عهد الملوك الموحدين العظام عندما دعت الحاجة إلى توسيعها ببناء حي القصبة واعتبار قلة المساحة المبنية التي لم تتجاوز آنذاك $\frac{3}{5}$ المساحة الكلية فإنه يمكن تقدير عدد سكانها بحوالي 40.000 نسمة وأذكر على سبيل المقارنة أن أول تعداد رسمي للسكان جرى بمدينة مراكش سنة 1926 وجد عددهم في حدود 72.000 نسمة مع العلم أن مراكش قد توسعت خارج الأسوار بظهور أحياء كليز والمشتى ودوار العسكر وعرفت توافد هجرة مكثفة للأوربيين واليهود والمغاربة الريفيين بصفة خاصة لشدة الطلب على اليد العاملة في البناء والأشغال العمومية في هذه الفترة ولهذا يجب التحفظ في قبول هذه الأرقام التي يذكرها المؤرخون والزائرون، لأن تضخيم أرقام السكان مشكلة إحصائية يسقط فيه الجميع.

2 - محاولة وضع تصميم حضري

من الصعب وضع تصميم حضري لمدينة مراكش في عهد السعديين لأسباب عديدة منها كون المؤرخين المسلمين لم يهتموا بهذا الجانب. أما التصاميم التي وضعها أجانب وهم تجار وخدام وسفراء زائرون أو متجسسون فإنها تضم أخطاء وغموضا سواء في تخطيطها أو أسمائها، ومع ذلك فإنها تقدم عنصرا ثمينا لتقديم الموضوع، ومن أهمها تصاميم مارمول والطوريس. كما أن المؤرخين والموثقين القدامى لايهتمون

كثيرا بتوطين مدقق لأسماء الأماكن التي تظهر وتختفي دون ما سبب يذكر. أو تنتقل من جهة لأخرى بالمدينة، ولهذا فإنه يصعب تجديد موقع الأحياء بدقة وتخطيط حدودها، خاصة تلك التي ظهرت في عهد السعديين أو اتخذت أسماءها في عهدهم من التي ظهرت قبلهم أو بعدهم. ومن الأحياء التي استمدت أسماءها من شخصيات بارزة أو أحداث وقعت في عهدهم : درب شنتوف، درب ضباشي، رياض الزيتون، درب اسنان، جنان بن شكرا، حمام الذهب.

3 - المنظر الحضري

إن السرعة الكبيرة التي كانت تنمو بها الأحياء والأسواق عندما تصبح المدينة عاصمة ملكية والسرعة الفجائية التي تتدهور بها الأحياء وتندثر الأسر الحضرية وتتراجع أعداد السكان عندما تهجرها الأسر الحاكمة وتفقد أولويتها السياسية، أدى إلى افتقار المدينة إلى تراكم رأسمال حضري وبنية اجتماعية ناضجة تضفي على عناصر المنظر الحضري جمالا وانسجاما، فكان المنظر العام بسيطا أقرب ما يكون إلى قرية ريفية منه إلى مدينة حسنة التنظيم والتسيير وذلك على مستوى السكن الذي يغلب عليه لون التراب البني والطرق الكثيرة الاعوجاج والسكان الذين يرجع معظمهم إلى أصول ريفية قريبة، وقد أبدى ملاحظات في هذا الموضوع كثير من الزائرين والدارسين وذلك حتى بداية القرن العشرين، فقد وصفها الجغرافي الفرنسي جان ديبوا في الأربعينات بقوله : " إن مراكش العاصمة لم تكن سوى قرية ضخمة أو على الأصح تجمع قروي حول سوق كبير يلتقي فيه الريفيون من سكان الجبال والصحراء.

4 - أسوار المدينة

إن الحدود الخارجية للمدينة هي الأسوار التي تحيط بها وكانت تتخذ عند بنائها شكلا شبه سداسي، لكنه كثير النتوءات وأحيانا الاعوجاج إذ قلما يستقيم الجدار على مسافة تزيد على الكيلومتر الواحد لكثرة عمليات الهدم والترميم غير المتبصر التي عرفها، يبلغ طوله 10 كلم أو 20 باعتبار أسوار أكدال وبعض الأسوار الداخلية، وهو

مبني بالطين المدكوك المخلوط بنسب مختلفة من الجير مأخوذ من نفس مكانه، ونظرا لهشاشته فإنه يجري ترميمه باستمرار وقد فقد بعض أهميته أو هالته في عهد السعديين بعد ظهور المدفعية الثقيلة لأنه لم تبق له مناعة كبرى.

وكان بالأسوار في هذه الفترة 15 بابا متعددة الأصول لكن معظمها مرابطي وهي أبواب ايلان، الدباغ، اغمات، الخميس (فاس)، تاغزوت، دكالة، مسوفة، الرخا، المخزن، الشريعة وبابان موحديان احداهما خارجي باب الرب (نفيس) وآخر داخلي باب اكناو وثلاث أبواب سعدية اثنان خارجيان هما باب إيغلي وباب الصالحة وواحد داخلي باب بريمة، ومن الثابت أنه كثيرا ما يقوم بعض الحكام بفتح أبواب جديدة بالأسوار الداخلية أو الخارجية أو إغلاقها حسب نظرتهم الخاصة لمشاكل الأمن العام. ولأهمية الأبواب فإنها كانت تبنى بمواد صلبة وتزود بسقائف تعلوها أبراج وغرف للحراس ومنعطفات لتشديد المراقبة على المارة وتتخذ مكانها عادة عند نهاية طرق قادمة من أقاليم غالبا ما تسمى بإسمها وبداية أزقة داخلية.

5 - الطرق

ظلت مراكش محتفظة على مورفولوجية المدينة الإسلامية الإفريقية، لها تصميم شعاعي منتظم نسبيا، فالطرق تتجه من الأبواب نحو وسط المدينة لتلتقي حول جامع ابن يوسف ويبدو أن هذا التصميم منطبق على شبكة طرق الحوز المتجهة نحو السوق القديم : أموروكش الموجود مكان المدينة قبل بنائها بين حدود قبيلتي ايلان وهزميرة.

ويبدو أن شبكة الطرق داخل المدينة لم يوضع لها تصميم مسبق هناك 10 خطوط تتجه من الأبواب نحو المكان المركزي بوسط المدينة على شكل نجمة لكن الطرق التي تقطع المدينة لتربط أبوابها وأطرافها مباشرة قليلة، أما الأزقة الثانوية والثلاثية الدروب فإنها تأخذ كل اتجاه وتتعرج وتتقوس إذ لا هدف لها سوى الوصول للمنازل تتسع وتضيق حسب أهواء جيرانها، ويلاحظ أن هناك محوران رئيسيان يتجنبان وسط المدينة المزدحم احدهما بالغرب يربط بين باب دكالة وباب الرب والآخر

بالشرق بين باب الخميس وباب اغمات، وهناك محور ثالث غير واضح يربط بين باب اكناو وباب اغمات جنوبا، فالتصميم الأولي ظل على حاله كما كان منذ البداية، لكن العناصر الأخرى أي الأحياء والأسواق عرفت تغيرا مع الزمن.

وكانت الطرق غير مرصفة، يكتسحها الغبار صيفا والأوحال شتاء ولا تنظف فتتكدس فوقها الأتربة وتدك بالأقدام فيرتفع مستواها تدريجيا عن مستوى المنازل، ولا تتوفر على قنوات المجاري بل على مطامير تتسرب مياهها القدرة في التربة وتلوث المياه الجوفية.

6 - شبكة الماء الشروب

كانت مدينة مراكش مزودة بما يكفيها من الماء الشروب بواسطة مياه عدد من الخطارات يرجع أصلها إلى قرون تزيد بتزايد الحاجيات وتتقلص بالردم أو الجفاف ينبع جلها من الجنوب والجنوب الشرقي المرتفع بالنسبة لمستوى المدينة أهمها عين البركة والمواسين والقبة وهي ملك للأحباس تزود المساجد والحمامات والمراحيض العامة والسقايات وبعض المنازل الخاصة. بينما تسقى البساتين المخزنية بمياه عيون أخرى : وكان لكل حي سقاية أو أكثر يتزود الناس منها بالماء الشروب، لأن مياه الابار المنزلية تكون غير مستساغة لتلوثها بنسبة ما بالماء القدرة المتسربة من مطمورة المرحاض المنزلي، ولا تستعمل مياهه سوى في التنظيف وسقي الأحواض المنزلية. ويوزع الماء على المرافق العمومية وبعض المنازل بواسطة قواديس فخارية قطرها 15 سم ويتخلل مسيرة الماء نقط للمراقبة تسمى المعدة. ويتولى الإشراف على توزيع المياه ناظر الاحباس الذي يتقاضى بعض الدراهم من المنازل المستفيدة من هذه المياه وهناك عيون أخرى تعتبر ملكا خاصا لأربابها الذين يتقاسمون مياهها المستعملة غالبا في ري البساتين الداخلية.

7 - الأهمية الحضرية للمنشآت الدينية

عملت المنشآت الدينية المهمة التي بناها السعديون على إعادة تنظيم المجال

الحضري وتصنيف الطرق وتوجيه التيارات داخل المدينة بالإضافة إلى قيمتها الروحية والجمالية، فإعادة بناء مسجد ابن يوسف وبناء مدرسته وملحقاتها أعطى قيمة للأحياء المرابطية القديمة المحيطة به : مثل قاعة بن ناهيض وبن صالح وأسول وحارة الصورة ... فعرفت رواجا تجاريا وصناعيا وثقافيا كبيرا كما أن مسجد المواسين أعطى قيمة لحي القصور المجاور الذي صار من الأحياء الارستقراطية وساعد مسجد باب دكالة على دمج غرب المدينة أي باب دكالة والكتبية وغيرها. وكان منطلق حركة عمرانية امتدت إلى سيدي بوعمرو وروض العروس. أما مسجد سيدي بلعباس وقبة ضريحه الذي بني في آخر العهد السعدي فقد كرس مجموعته السكنية كضاحية دينية عرفت فيما بعد باسم الزاوية. أما مسجد بن صالح فقد صار ملتقى طرق قادمة من باب ايلان وباب اغمات استقطب سكانا نشيطين في الحرف معظمهم من المهاجرين الريفيين الذين كونوا أحياء شعبية، كما أن ضريح سيدي يوسف بن علي اجتذب سكن عدد من الناس الذين يستفيدون من الرواج التجاري لباب اغمات وبالإضافة إلى حي المجذومين : الحارة بباب دكالة نرى أنه وجدت ثلاثة أحياء خارج الأسوار بالإضافة إلى إقامات ثانوية ببعض البساتين أهمها الإقامة الملكية ببستان المنارة. وهناك غموض يحيط بوضعية الأحياء المحيطة بضريح سيدي سليمان الجزولي إذ يبدو أنه همش من طرف نفوذ الزوايا رغم التقدير الكبير الذي كان يلقاه لدى السكان.

ب - الأحياء التجارية والصناعية

1 - مركب مركزي للتجارة والحرف

ينتشر جنوب مسجد بن يوسف مركب للأسواق الحضرية فوق مساحة 20 هـ يتوسطه سوق القيصرية، وتتكون الأسواق غالبا من أزقة بها دكاكين متخصصة في مصنوع أو تجارة معينة، وغالبا ما يقوم التخصص على أساس عائلي أو قبلي حيث أن كل حرفة أو نشاط ينتشر بين جماعة إقليمية خاصة يقصدها المهاجرون الجدد. ولكل بضاعة سوقها أو زقاقها الخاص بها، وكان سوق القيصرية هو أكبر وأهم سوق من حيث المساحة والمحتوى : فهو سوق البضاعة النبيلة (أثواب، ملابس، حلي، ألخ) وقد احتفظ المغرب بهذا الاسم من أيام الرومان، حيث كان يطلق على أهم سوق بالمدينة

السوق القيصري Forum caesarium وهو يلبي طلب أغنياء المدينة وفئاتها الشعبية وسكان الأرياف بقسم واسع من جنوب المغرب. ويليه سوق المصنوعات الجلدية يتمثل في سوق الجلود الخام والمدبوغة وأسواق البلغة والشكارة والأحزمة والسروج واللجام. وكانت الأنشطة والمصنوعات الأخرى التي تلبي الحاجيات المنزلية من خشب وحديد وأغطية وبسط ودوم وفخار وخياطة وصباغة... تحتل حيزا أقل وتنتشر غالبا بالهوامش يبرز من بينها خاصة سوق الحدادين المعروف بالسمارين الموجود بالمدخل الجنوبي للمركب. ويتخلل هذه الأسواق بعض الفنادق الصغرى للعمل وسكن الصناع وأسواق صغيرة للأطعمة كالطالعة. وكانت كل الأنشطة تتم على أساس فردي داخل دكان صغير يجمع غالبا بين عمليتي الإنتاج والبيع به معلم وبضعة صناع من الأطفال واليافعين ترجع ملكيتها إلى الأحباس أحيانا.

2 - أنشطة الهوامش

ينتشر بهوامش هذ ا المركب المنشآت الكبرى لتجارة الجملة والمنتوجات الريفية الكبيرة الحجم التي تتطلب مساحات كبيرة تتمثل خاصة في الفنادق، وهي تتكون عادة من طابقين وحصن واسع تشغله الدواب، أو يعقد فوقه عرض تجاري أو بيع بالمزاد العلني، وتحيط به غرف مخزن أو دكان تجارة ويتخصص كل فندق في بضاعة خاصة كالصوف أو الجلد أو التمور أو فواكه جافة أو الزيت ... وتتجمع هذه الفنادق في منتصف بعض المحاور الرئيسية التي تربط بين أحد الأبواب المهمة ومركز المدينة ومن أهمها الموقف الذي ظهر به زقاق يعرف ببين الفنادق على أنه بدأ يظهر في نهاية عهد السعديين أهمية متزايدة لسوق الساحة الكبرى التي بدأت تظهر معالمها وإن لم تتخذ بعد إسمها الحالي جامع الفناء. فبعد أن كانت سوقا لمختلف المنتوجات الريفية الكبيرة الحجم : خشب، حطب، قصب، علف .ومكان لتنفيذ الأحكام وتعليق الرؤوس بدأت تجتذب أنشطة أخرى وتكون معرضا لمختلف البضائع الجديدة والمستعملة وبنيت حولها الفنادق بباب فتوح وفحل الزفريتي ومذخلي درب ضباشي والقصور كما وجد بها الديوانة وهي فندق خاص بالتجار الأجانب يقيمون به لمراقبتهم وإحصاء بضاعتهم وإلى جانب هذا المركز الاقتصادي الذي له أهمية تتجاوز نطاق المدينة أو

الإقليم، نجد محلات أنشطة أخرى موجهة لخدمة سكان المدينة تنتشر بالأحياء السكنية كالبقالة والأفرنة والخياطة والتجارة ... وهناك نمط ثالث من المراكز الإقتصادية هي الأسواق الأسبوعية التي تكون معرضا تجاريا حضريا وريفيا عند أبواب المدينة، أما خارج الأسوار أو داخلها مثل سوقي باب الخميس : أحدهما يعقد بداخل السور، والآخر خارجه خاص بتجارة المواشي والدواب. وقد كان لهذا السوق أهمية كبرى في تزويد المدينة بالمنتوجات الريفية خاصة مواشي اللحوم. كما كان يعقد خارج باب دكالة سوق أسبوعي آخر يوم الثلاثاء خاص بتجارة الحبوب التي ترد خاصة من دكالة والسهول الساحلية. وقد ذكر مارمول أنه كان يعقد بمكان جامع الفنا الحالي سوق أسبوعي يوم الخميس لبيع المواشي والحبوب.

ويلاحظ أن مركز الثقل التجاري والإقتصادي للمدينة أخذ ينتقل تدريجيا من الشمال نحو الجنوب بتزايد السكان والعمران. فبعد أن استقر قرونا بجوانب مسجد ابن يوسف الذي ضاقت ارجاؤه تزحزح جنوبا نحو الرحبة القديمة التي كانت أصلا سوقا للحبوب وبعد إحاطتها بعدد كبير من الأسواق التي ضيقت عليها الخناق، تزحزح المركز نحو ساحة جامع الفناد التي بدأت تتضح مركزية موقعها بين قطبي المدينة : القصر الملكي بالقصبة والمسجد الجامع ابن يوسف وإحاطتها بأحياء جديدة كرياض الزيتون ودرب ضباشي أو متجددة كالقصور والكتبية.

ب - الأحياء السكنية

1 - مساحة سكنية محدودة

بنيت المدينة فوق سهل مستو يميل بدرجة خفيفة 1 % نحو الشمال أي في اتجاه وادي تانسيفت. باستثناء الجهة الشرقية حيث يجري واد ايسيل فإنه لم تكن هناك عقبة طبيعية تفرض على تصميم المدينة تكيفا خاصا كما يلاحظ بالنسبة لفاس مثلا فقد كانت الطرق والأحياء تتوسع حسب متطلبات السكان وأهوائهم بلغت مساحتها 650 هـ لكن المباني لم تشغل سوى مساحة تنحصر بين $\frac{3}{5}$ إلى $\frac{2}{3}$ المساحة الكلية رغم ظهور أحياء جديدة وتوسع أحياء قديمة في العهد الذهبي للسعديين فقد كان بأطراف

المدينة مساحات كبيرة غير مبنية، وجل المساحات الواقعة جنوب خط يمر من باب ايلان إلى باب الرخاء La poterne تشغلها بساتين وبعض القصور. وكان مسجد ابن يوسف بمثابة قلب المدينة يكون قطبا شعبيا يجتذب الأنشطة والسكان امتدت الأسواق والأحياء في الاتجاه الجنوبي الغربي نحو القصر المرابطي بالكتبية لكن نقل المركز الإداري إلى القصبة من طرف الموحدين أوجد قطبا آخر بمسجده الكبير وقصوره وأحيائه وأسواقه وبين هذين القطبين الديني الشعبي من جهة والملكي الإداري من جهة أخرى انتشرت أحياء متباينة على أسس اجتماعية وعرقية وإقليمية غالبا فلليهود حيهم الخاص وكان للسود كذلك أحياؤهم حول القصر الملكي بالقصبة وباب احمر فقد انطبعت الأحياء بطابع قبلي منذ نشأة المدينة حيث تحولت مخيمات ومعسكر كل قبيلة إلى حي. وهذا ما أعطى للكثير من الأحياء أسماء قبلية لازالت ماثلة إلى اليوم درب اشتوكة، عرسة أوزال ودرب تودغة ... وتقوم أحياء المهاجرين عند الأبواب حيث تنتشر مساكنها في غير انتظام بين الفنادق والأسواق، كما ظهرت انويتها خارج الأسوار وتتميز الأحياء الشعبية بتكدس سكاني بينما تبقى أجزاء واسعة من المدينة فارغة أو تشغلها بساتين مما يدل على صعوبة إقامة البناءات الجديدة.

2 - السكن

يعتبر السكن من أهم عناصر التصميم الحضري فزيادة على منظره الذي يعكس الذوق والثقافة السائدة فإن توزيعه وكثافته تمثل الكثافة السكانية، وتعكس هندسته وحجمه ومواد بنائه المستوى التقني والتكيف مع الظروف الطبيعية والاقتصادية والتراتب الطبقي الاجتماعي. لقد كان المنزل على نمط الدرب منغلقا لايرتبط بالعالم الخارجي سوى بباب واحد إذ تفتح النوافذ والغرف على ساحة وسطى مربعة غالبا بها أربعة أحواض أو حوض كبير به شجيرات وهذا التصميم أقرب ما يكون إلى تصميم الفيلا الرومانية، يوجد البئر والمطبخ في زاوية والمرحاض في الزاوية المقابلة قرب باب المنزل غالبا. ومهما كانت المسافة بينهما فإن البئر لابد وأن يتلوث بالمياه القذرة المتسربة، مما يدعو إلى ضرورة توفر كل حي على سقاية عمومية للماء الشروب، كانت مساكن عامة الناس مبنية بالتراب المدكوك (تابية) غالبا ما يؤخذ التراب من

مكانها نفسه مما يجعل مستوى ساحتها منخفضا بنصف متر من مستوى الدرب. وقد يخلط التراب مع نسبة من الجير كما تبنى بعض المنازل بطوب طيني مخلوط بالقش غير مشوي إلا أن هذا كان نادرا. لكن القصور والدور العالية يدخل في بنائها الآجر والحجارة. وتطلى عادة جدران الغرف الداخلية بالجير أو الجبص أما الجدران الخارجية فإنها تبقى دون طلاء محافظة على لونها الترابي البني الذي لايختلف عن جدران القرى مما يعطي للأحياء السكنية منظرا ريفيا، وجل المنازل تتكون من طابق واحد لأن الجدران الترابية والسقوف المكونة من القصب واعمدة خشب الصفصاف أو السرو أو جذوع النخل غالبا لاتصمد لثقل كبير فوقها، ويضم المنزل عائلة أبوية يتعايش بها أجيال، وغالبا ما تقيم كل أسرة زواجية في غرفة واحدة تشترك مع غيرها في بقية المصالح : المطبخ والبئر والباحة وأحيانا قاعة لاستقبال الضيوف. وكثيرا ما تبنى منازل كبيرة من طرف الشخصيات البارزة تدفعهم نظرتهم الضيقة إلى الضرب بعرض الحائط بكل مقومات التخطيط الحضري فيغلقون أزقة بأبنيتهم الجديدة أو يضيقونها كثيرا أو يسقفون الأزقة لبناء غرف فوقها مما يؤدي إلى الإضرار بالطرق وحركة السير والمنظر الحضري.

3 - تراتب الأحياء وتوزيعها

لم تكن لجل الأحياء شخصية تاريخية تتميز ببنية اجتماعية ناضجة وحدود حضرية بارزة، فقد كانت تعرف من خلال أزقتها الضيقة المغلقة : الدرب ومعظم سكانها متقاربون من حيث المستوى المعيشي والمهني، فهم غالبا مهاجرون قدامى أو جدد من نفس الإقليم أو يعملون بنفس المهنة، وإن لم تبتر الأحداث التاريخية العتيقة مسار الحياة العادية فإنه يحقق اندماجا ويكتسب شخصية وروحا تحرك السكان بتضامن لمواجهة الأحداث. ومن الصعب تحديد عدد الأحياء بمراكش في عهد السعديين لعدم ضبط الأسماء وحدود الأحياء ولكن يمكن تقدير عددها بحوالي 20 إلى 25 حيا. وتتكون الأحياء الكبيرة مثل درب ضباشي من عدة دروب لكل منها تجهيزاته الخاصة : فران، سقاية، كتاب، دكاكين... وقد يعيش سكان كل درب حياتهم اليومية بمعزل عن بقية الدروب لايلتقون بغيرهم سوى في المناسبات كصلاة الجمعة في المسجد الكبير

أو الذهاب إلى الأسواق الكبرى للحبوب والملابس.

وهناك تشابه عام بين مختلف الأحياء في تصميم طرقها وتجهيزاتها ولاتتمايز سوى من حيث ثروات سكانها المرتبطة بأنشطتهم وبأصول سكانها. ويلاحظ أن الأحياء الشعبية كانت لها الغلبة العددية ذلك أن مراكش كانت دائما مدينة شعبية (ولم تكن بورجوازية كفاس) فالفروق الاجتماعية بين سكانها ضئيلة نسبيا بسبب تخلي الأسر الحاكمة والغنية عنها واستقبالها لسيل لاينقطع من المهاجرين الريفيين.

وتتواجد الأحياء الحضرية القديمة حول جامع ابن يوسف : مثل بناهيض وحارة الصورة وأزبزط أسول ... أما أحياء الفئات الغنية فقد كانت تتواجد بغرب المدينة حول مسجد المواسين والقصور وإلى شمال القصبة : رياض الزيتون أي القرب من القصور الملكية القديمة بالكتبية والجديدة بالقصبة. وتتميز بقلة سكانها لكبر مساحة منازلها المكونة غالبا من طابقين وصمت أزقتها المظلمة لكثرة ما بها من مقاطع مسقوفة (ساباط) مما يقوي الانطباع بالتحفظ والسرية العائلية، وهي أحياء سكنية محضة لاتوجد بها محلات مهنية، وتحظى بعدد من المنشآت العمومية : سقاية، مسجد، حمام، مرحاض عمومي. ويوجد بالجهة الغربية للمدينة كذلك عدد من البساتين التي تحتضن إقامات لشخصيات بارزة لازالت ماثلة إلى اليوم تحت أسماء قديمة وحديثة : عرسة مولاي عبد السلام، المامونية، عرسة مولاي مصطفى، عرسة الحامض، عرسة الكتبية ... ذلك أن الجهة الغربية من المدينة كانت أفضل موقعا وأعدل مناخا، تتلقى هي الأولى الرياح الغربية الملطفة للحرارة والمنظفة للجو.

أما الأحياء الحرفية فقد كانت متباينة من حيث موقعها وأهميتها فهناك قطاعات قوية التخصص بحي الذباغين الممتد على مساحة 40 هـ قرب الأسوار الشرقية ينفصل عن بقية الأحياء بسلسلة من البساتين الصغيرة : عرسة البردعي، جنان بن شكرا، عرسة مولاي بوعزة، عرسة المسفيوي، تتصرف بمساحات واسعة لتجفيف الجلود داخل الأسوار أو خارجها، ومكنه ميل الأرض نحو واد ايسيل من بناء شبكة تصريف محلية لصرف المياه القذرة نحو مجرى واد ايسيل هي الوحيدة من نوعها بمراكش آنذاك ويوجد شماله حي الفخارين بأفرنته الكثيرة وقد كون رمادها أكمة عالية هي كدية

تابحيرت كما تكون عند باب الخميس وباب دكالة عدة تلال من الرماد الذي تخلف من مختلف المنشآت المستعملة لنار الحطب كالحمامات والأفرنة والرماد المنزلي المخلوط بالأتربة والأزبال، كما ينتشر بهذا الجزء الشرقي أنوية حرفية أخرى لصناعة النسيج والحصر والقنب والدوم والزرابي. وقد انتشرت الحرف والمشاغل منذ أيام المرابطين وتعززت أيام المرينيين عندما فقدت المدينة دورها السياسي واضطرت للعيش من عمل أبنائها ويمتد هذا الحزام من باب ايلان إلى باب الخميس (باب فاس) يتوسطه ساحة الموقف التي كانت محطة وصول القوافل وسوقا للشغل يتم فيها التعاقد بين المشغلين وطالبي الشغل المنتظرين بجنباتها، لقد أثبت الزمن موافقة هذا الموقع لهذه الأنشطة فقد كانت الرياح الغربية والشمالية الغربية السائدة تدفع خارج الأسوار الأدخنة والروائح منطقة الجو كما أن القرب من أبواب الأسوار يسهل تزويدها بموادها الخام : حطب، جلود، طين، خشب وغيرها، ويوفر لها مجالا للتوسع خارج الأسوار لنشر الجلود والصوف وسحب خيوط القنب.

وكانت الحرف الأخرى موزعة بشكل نقطي (انوية صغيرة بالمدينة بعضها مجتمع في أسواق صغيرة : كسوق القصابين أو الغسول، الدوم. والصوف والآخر موزع بين المنازل السكنية والأحياء الشرقية، وتوجد المشاغل عادة اما بغرف بالطابق السفلي أو بدكاكين. ويعرف بعض الفنادق التي تشبه في تصميميها فنادق التجارة وهي مخصصة كليا لنشاط حرفة معينة وإقامة صناعها الغزاب غالبا. وكان اقتصاد المدينة يعتمد أساسا على هذه الأنشطة الصناعية والتجارية خاصة عندما تفقد وظيفتها السياسية. وتتميز الأحياء الشعبية بالجهة الشرقية بصغر منازلها وقصر جدرانها وسعة أزقتها التي تكون مشمسة كثيرة الحركة تتو الى فيها الدور السكنية والمحلات المهنية، يرتبط سكانها بعلاقات تضامنية قوية. لكن هذا التطبيق لم يكن دائما واضحا إذ تقضي عليه أحيانا عوامل سياسية وعصبية تدفع إلى تصنيف قبلي وجهوي.

ج - البساتين داخل المدينة

لم تعرف المدينة خلال تاريخها الطويل بناء كل مساحتها الداخلية إذ لم يبن منها في أفضل الحالات في العصر الذهبي للموحدين والسعديين سوى $\frac{3}{5}$ إلى $\frac{2}{3}$ على الأكثر فإلى جانب المساحات الكبيرة التي تشغلها المقابر والساحات توجد بساتين كبيرة وصغيرة عمومية وخاصة، فهناك حدائق ملكية وأميرية للنخبة السياسية لازالت أسماؤها تدل على ذلك إلى اليوم : حدائق القصور الملكية بالقصبة، حديقة مولاي عبد السلام، مولاي مصطفى عرسة بن ادريس، وعرسات بعض الحضريين القدامى مثل عرسة قشيش، رياض التلمساني، عرسة الملاك، عرسة البردعي، عرسة ايهيري، عرسة المسفيوي، عرسة مولاي بوعزة ناهيك عن العراسي التي تحولت إلى أحياء منذ قرون مثل عرسة اوزال ورياض العروس ... وتنتشر هذه البساتين بصفة عامة بين مركز المدينة والأسوار وتتركز بصفة خاصة بالجهة الغربية والجنوبية تدعمها بساتين أخرى كبرى خارج الأسوار مثل أكدال وبستان المسرة والمنارة والسملالية.

وكانت كل هذه البساتين تصلها سواقي من خطارات وبها صهاريج تمارس فيها زراعة الخضر والحبوب تحت ظلال أشجار الزيتون والمشمش والحامض والدالية والنخيل وغيرها، مما يدعم معالم المنظر الريفي للمدينة وكانت مساحة هذه البساتين تتسع وتتقلص حسب الأوضاع السياسية والاقتصادية والحركة الديمغرافية، فكثير من الأحياء حلت محل العراسي في وقت الرخاء والتوسع العمراني وأحياء أخرى تحولت إلى أنقاض وحل محلها بساتين خاصة بالجزء الغربي من المدينة : حدائق الكتبية ومقبرتها وأجزاء من العراسي الكبرى عرسة مولاي عبد السلام والمامونية وسيدي غريب والجنان الاخضر التي انتشرت فوق الأحياء المرابطية الأولى.

وعندما تفقد المدينة نفوذها السياسي على ضاحيتها كما حدث في أواخر أيام السعديين فإن الكثير من السواقي المزودة لبساتينها تجف بفعل التخريب المقصود أو عدم انتظام الصيانة فتتحول بعض البساتين إلى أراضي جرداء.

هذه هي معالم الصورة العامة لمراكش في عهد السعديين وهي قريبة الشبه بما وجدت عليه المدينة في مطلع القرن 20 بإضافة بعض الأحياء التي ظهرت في عهد العلويين. فهي مدينة حمراء بجدرانها الترابية وخضراء ببساتينها وحارة بشمسها وحيوية سكانها. تتجاور فيها القصور المبلطة بالرخام والفسيفساء والزليج والجبص المنقوش ومنازل الأغنياء العالية ومنازل العامة البسيطة المنخفضة وأسواق حرفية وتجارية عديدة. استطاعت رغم كل ما تتعرض له من نكبات تجديد حيويتها وتلبية حاجيات سكانها من الحضريين القدامى والمهاجرين الجدد الذين يلتجئون إليها باستمرار سواء في عهود الرخاء لتلبية حاجتها إلى اليد العاملة ويأتون غالبا فرادى أو في خضم الأزمات والنكبات لملء الفراغ الحاصل بين جدرانها وتجديد ديمغرافية وحيوية سكانها، وغالبا ما يأتون عندئذ جماعات أو ملتجئة أو فارة من بؤس الأرياف عندما تتعرض للمجاعات وانعدام الأمن، توفر وسطا خصبا للتحضر والتسلق الاجتماعي والابداع الفكري والمهني وجمع الثروات لما توفره بيئتها من مرونة اجتماعية وحرية شخصية.

ورغم انعدام تصميم حضري وهيئة قوية لإدارة شؤونها وضعف التدخلات القطاعية لإصلاح أحوالها، فقد استطاع سكانها بفعل التجربة والخطأ والحاجة الماسة خلق وسط حضري غني بالإبتكارات العمرانية مما أنتج نموذجا لمدينة مغربية إسلامية ذات شخصية إفريقية خاصة ساهمت في إغناء التراث الحضري المغربي بابتكارات تقنية في بناء القبب والأقواس والسقوف وجلب المياه وإنشاء البساتين والرياض ... تتمحور حول قطبين هما المسجد المركزي وأسواقه التي تتميز بالدوام وعدم الانقطاع، والقصر الملكي الذي يبزغ نجمه بسرعة وقوة ثم لايلبث أن يخبو مخلفا ثغرة كبيرة تعمل المدينة على سدها، مستغلة أحسن استغلال موضعها المنبسط الغني بالمياه والدفء وموقعها الأستراتيجي الممتاز في ملتقى طرق بين أقاليم طبيعية وبشرية متباينة، موفرة منشآتها العديدة لخدمتها وأسواقا للتبادل والتكامل بين اقتصاد السهول والجبال والسواحل والصحراء وشمال وجنوب المغرب.

أهم المراجع

1 - بن الشرقي حصري أحمد : ارتسامات ومعطيات تاريخية حول مدينة مراكش . الجزء الأول - الجزء الثاني . المطبعة والوراقة الوطنية - مراكش 1986.

2 - حسن الوزان : وصف افريقيا . الشركة المغربية للناشرين المتحدين الرباط 1982.

3 - المجذوبي عبد العزيز : من مسائل التعمر واستعمال المجال في العهدين المرابطي والموحدي : ندوة ملتقى مراكش كلية الآداب جامعة القاضي عياض - مراكش 1988.

4 - الناصري أحمد : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى . دار الكتاب الدار البيضاء 1956.

5 - محمد مزين : فاس وباديتها (1549 - 1637) الجزء الأول - الجزء الثاني . منشورات كلية الآداب الرباط 1986.

6 - مطبوعات سياحية متنوعة حول مراكش.